من رجال البلاغة في عصر الحروب الصليبية :

ابن الأثير

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

إخوة ثلاثة ، بلغوا حظاً كبيراً من المجد العلمي ، والمنزلة الرفيعة في الحياة ، وخلود الذكر بعد الموت . أما أكبرهم فمجد الدين المبارك (٥٤٤ — ٦٠٦ هـ) الذي كرس حياته لدراسة القرآن والحديث والنحو ، وله فيها مؤلفات ، لا يزال بعضها باقياً إلى اليوم . وأوسطهم عز الدين علي (٥٥٥ — ٦٣٠هـ) المبرز في التاريخ ، والمصنف فيه عدة مصنفات ، أهمها الكامل الذي يعد مرجعاً من أشهر المراجع . وأصغرهم ضياء الدين نصر الله ، الأديب الوزير ، وهو الذي نريد الحديث عنه . ومع اختلاف مناحيهم في الثقافة شغفوا جميعاً بالأدب وألفوا فيه . وتحتفظ دار الكتب بوسائل المبارك الأدبية ، وبكتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور لعز الدين . أما أصغرهم فكان أوفاهم حظاً من الأدب وبلوغ أسمى المناصب ، وإن قصرت به سياسته عن أن يحتفظ بما ناله من سلطان وجاه .

ولد نصر الله في يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣) بجزيرة ابن عمر ، وهي بلدة على دجلة في شمال الموصل وبالقرب منها . وإذا كان التاريخ لم يتحدث عن والده محمد بن محمد بن عبد الكريم فأغلب الظن أنه كان ميسور الحال يسر أهيأ لأولاده أن يتفرغوا من الثقافة وأن يتفرغوا لها .

وانتقل نصر الدين مع والده إلى الموصل حيث تثقف بها ، فحفظ كتاب الله وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وأخذ بحظ صالح من النحو واللغة ، أما علم البيان فقد خصص له أكثر وقته ، ووقف عليه معظم جهوده ، فقرأ فيه الكتب النظرية ، وأقبل على دواوين الشعراء يحفظ منها ما يشاء ، فدرس ما ألف في البلاغة ، وعرف ما انتهى إليه العلماء فيها ؛ ومن أهم ما قرأه منها :

كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، والتذكرة لابن حمدون البغدادي ، وكتاب أبي العلاء محمد بن غانم ، والأقصى القريب للتنوخي ، وكان معجباً بكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي ، وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، « غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا » ، كما قال في المثل السائر . أما علمه بالشعر ، وحفظه له ، فقد قال عنه في كتابه : « ولما نصبت نفسي للخوض في علم البيان ، ورمت أن أكون ممدوداً من علمائه ، علمت أن هذه الدرجة لا تنال إلا بنقل ما في الكتب إلى الصدور ، والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور ... .

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس ، وأبي عبادة الوليد ، وأبي الطيب المتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين لأسنال السائرة وحكمة الحكماء » .

وأخذ ابن الأثير كذلك بحظ من الحساب ، والجبر ، والمقابلة ، والهندسة . ولست أدري إن كان قد عرف لغة غير العربية ، مما هيأ له أن يحكم على الالتفات بأنه خاص باللغة العربية دون غيرها من اللغات[1] ؟ وأرجح أنه كان يعرف الفارسية والتركية ، كما يدل على ذلك حديثه عنهما في كتابه[2] ؛ وكان ابن الأثير متعصباً للغة العربية ، مؤمناً بأنها سيدة اللغات ، لما أوتيت من خصائص في تركيب كلماتها ، وما منحته من سعة ودقة جمال .

أما موقفه من الفلسفة فموقف المبغض الزدري ، يرى في دارسيها من أمثال ابن سينا والفارابي رجلا مغرورين أضلهم أرسطو وأفلاطون .

ولما استكمل ابن الأثير ثقافته ، مضى يريد الاتصال بصلاح الدين ، فأوصله القاضي الفاضل إليه في جمادى الآخرة سنة ٥٨٧

(١) المثل السائر .

(٢) ص ١٦٤ س ٢٥١

وقرر له صلاح الدين مرتباً ، ولكنه لم يلبث في صحبة صلاح الدين بضعة أشهر ، حتى طلبه الملك الأفضل نور الدين من والده ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة في خدمته ، والانتقال إلى ولده ، فاختار ولده ، ومضى إليه في شوال من تلك السنة . ولعل الباعث له على هذا الاختيار رغبته في أن يكون بمكان يستطيع أن يظفر فيه بسامي المناصب وذوي النفوذ ، ولن يكون ذلك مع صلاح الدين ووزيره القاضي الفاضل . وحقق ابن الأثير أمنيته عند الملك الأفضل ، فقد استوزره ، ونعم بما كان يبتغيه من السلطان . فلما مات صلاح الدين ، وصارت دمشق إلى الأفضل انفرد ضياء الدين بتدبير شئون الملك ، وتصريف أمور الرعية ، وأصبح مرجع الحل والعقد . ويجمع المؤرخون على فساد سياسته الخارجية والداخلية فقد توترت العلاقات بين الأفضل وملوك أسرته ، بسوء تدبير وزيره ، ونفرت الرعية من حكمه ، وكان له بلا ريب أكبر الأثر في المصير المحزن الذي انتهى إليه مليكه بعزله عن الملك . وكثيراً ما أشار العادل على ابن أخيه أن يقيله فلم يكن يفعل ؛ وهجاه الشهاب فتيان الشاغوري فقال :

متى أرى وزيركم   وماله من وزر
يقلعه الله فذا   أوان قلع الجزر (ى)

وبلغ من سخط الشعب أن الناس هموا بقتله عند ما نزل الأفضل عن عرش دمشق ، فأخرجه الحاجب مستخفياً في صندوق مقفل عليه ، ولكن ذلك كله لم ينزع ثقة مليكه فيه ، فصحبه أنى ذهب وحضر إلى مصر في صحبته ، عند ما جاء الأفضل وصياً على العرش لابن أخيه العزيز . وظل ابن الأثير في خدمة الأفضل حتى أواخر سنة ٦٠٧ بعد نحو عشرين عاماً قضاها في صحبته ، ثم تنقل بين حلب عند الظاهر غازي ، والموصل ، وإربل ، وسنجار ، ولكن لم يطب له المقام في واحد منها ، فعاد إلى الموصل ، واتخذها دار إقامة ، وكتب الإنشاء لصاحبها : ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود ، وكان ذلك سنة ٦١٨ ، وبقى بالموصل زهاء عشرين عاماً أخرى . وفي رحلة له إلى بغداد ، يحمل رسالة من صاحب الموصل توفي بها في إحدى الجماديين سنة ٦٣٧ (١٢٣٩ م) ، ودفن هناك .

كان أظهر صفات ابن الأثير إعجابه بنفسه ، وإعلانه بمواهبه ، تلمس ذلك في كل خطوة تخطوها في كتبه ، فتراه حيناً يعرض عليك نماذج من رسائله ، معجباً بها ، منوهاً بقدرها ، مبيناً ما استطاع أن يصل إليه فيها من معان جديدة ، وأفكار مبتكرة ، وحيناً يوازن بين كلامه وكلام غيره ، ليقنعك بجودة ما خطته براعته ؛ وفي نظريات البلاغة كثيراً ما تراه يقدم إليك آراء يعدها من مبتكراته ، أو يأخذ بيدك لتلمس ما زاده هو على آراء من سبقه .

وإنا نقر لابن الأثير أنه كان من مجتهدي هذا الفن ، وأن أكثر كتابه كان ناشئاً عن تجارب لصاحبه ، وعن تقليبه النظر في ألوان الكلام ليستخلص منه وجوه حسنه ، وإن كنا نعرف أنه يغالي أحياناً في ادعاء الاختراع لمعاني رسائله ؛ قال ابن خلكان « ومن رسائل ضياء الدين ما كتبه عن مخدومه إلى الديوان العزيز من جملة رسالة وهي : ودولته هي الضاحكة وإن كان نسبها إلى العباس ، فهي خير دولة أخرجت للزمن كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ، ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلا بأنها لا تهرم ، وأنها لا تزال محبوبة من أبكار السعادة بالحب الذي لا يبلى ، والوصل الذي لا يصرم . وهذا معنى اخترعه الخادم للدولة وشعارها وهو مما لا تخطه الأقلام في صحفها ؛ ولا أجالته الخواطر في أفكارها .

أقول : لعمري ، ما أنصف ضياء الدين في دعواه الاختراع لهذا المعنى ، وقد سبقه إليه ابن التعاويذي في قصيدته السينية التي مدح بها الإمام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد ، أول يوم جلس في دست الخلافة ومنها :

ورأى الغانيات شيبي فأعرضن ، وقلن : السواد خير لباس
كيف لا يفضل السواد ، وقد أضحى شعاراً على بني العباس

ولا شك أن ضياء الدين زاد على هذا المعنى ، لكن ابن التعاويذي هو الذي فتح الباب ، وأوضح السبيل ، فسهل على ضياء الدين سلوكه .

وتنوعت أغراض الرسائل التي كتبها ضياء الدين بين سلطانية وأخوية ، وهي رسائل دسمة ، فيها كثير من معاني ما حفظه من قرآن وحديث وشعر ، وكثير من الأمثال والإشارات التاريخية ، فقد كان ابن الأثير مثقفاً ثقافة أدبية قوية ، والتزم في

رسائله السجع ؛ لأنه كان يراه أعلى درجات الكلام ، ولا يرى وجهاً لمن يذمه سوى عجزه عن أن يأتي به ؛ وإلا فلو كان مذموماً ما ورد في القرآن الكريم ، ويعلل وجهة نظره في استحسان السجع بأنه اعتدال في مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع .

وجمعت رسائله في ديوان بلغ عدة مجلدات ، يبلغ المختار منها مجلداً واحداً ، ولكني لم أعثر على هذا الديوان ، بل رأيت نماذج له كثيرة في كتابيه المثل السائر ، والوشي المرقوم .

وبلغت ثقته بنفسه في إنشاء الرسائل ، والعلم بقوانين البلاغة حداً كبيراً ؛ فكان يعارض شيخ الإنشاء في عصره : القاضي الفاضل ؛ يكتب في أغراض كتبه ، وحيناً يعرض له من المعاني ما يراه قد نقص عبد الرحيم ؛ فمن ذلك أنه قد عرض عليه كتاب له ، أرسله إلى بغداد على لسان صلاح الدين سنة ٥٧٩ ، وضمنه ما أبلاه في خدمة الدولة : من فتح مصر ، ومحو الدولة العلوية ، وإقامة الدعوة العباسية ، وشرح فيها ما قاساه في الفتح من الأهوال ، فلما تأمله ضياء الدين ، وجده كتاباً حسناً ، قد وفى فيه الموضوع حقه ، إلا أنه أخل بشيء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح في المرة الثالثة ، وهذا له نظير في فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة فإنه قصدها عام الحديبية ، ثم سار إليها في عمرة القضاء ، ثم سار إليها عام الفتح ففتحها ، فلما عارض ضياء الدين رسالة القاضي الفاضل ؛ أشار فيها أشار إلى الشبه بين فتح مصر وفتح مكة ، وقال بعد أن أورد هذه الرسالة التي أنشأها : وعجبت من عبد الرحيم بن علي البيساني مع تقدمه في فن الكتابة ، كيف فاته أن يأتي به في الكتاب الذي كتبه . وانتقد القاضي الفاضل مرة أخرى وإن لم يصرح باسمه عندما رآه يشبه حصناً من حصون الجبال بأنه أنملة ، قال : فأي مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل ؟ !

وكان يوازن بين رسائله ورسائل الصابيء الكاتب ليرى مقدار تفوقه عليه ؛ وهو يرى فيه أن عقله زائد على فصاحته وبلاغته ، ذلك أنه يورد في كلامه وصايا وشروطا ، واستدراكات وأوامر ، ما بين أصل وفرع ، وكل وجزء ، وقليل وكثير ؛ إلا أنه عبر عنها بعبارة في بعضها ما فيه من الضعف .

أما موقفه من علماء البلاغة فموقف الناقد الحاسب لا القابل المسلم ، يورد أفكارهم ، فيقبل منها ، ويرفض ، مناقشاً ، مدعماً رأيه بالحجة ، وإن جانبه الصواب أحياناً . وما كان يرى أن يدخل علماء النحو في الأمور البلاغية حتى لا يصدروا أحكاماً لم تؤهلهم لها دراستهم ؛ وهو لذلك ينتقد أبا الفتح بن جني عند ما شرح قول أبي الطيب :

كل جريح ترجى سلامته إلا جريحاً دهته عيناها
تبل خدى كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها

فظن ابن جني أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبتسم فيخرج الريق من فمها ، ويقع على وجهه فشبهه بالمطر ؛ قال ابن الأثير : وما كنت أظن أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره ، وإذا كان هذا قول إمام من أئمة العربية تشد إليه الرحال ، فما يقال في غيره ؟!

وأما رأيه في الشعراء فإنه يرى الفرزدق وجريرا والأخطل أشعر العرب أولا وآخرا . « ومن وقف على الأشعار ، ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه ، ولا ينبغي أن يوقف مع شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى فإن كلا من أولئك أجاد في معنى اختص به حتى قيل في وصفهم : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا شرب . وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا في كل ما أتوا به من المعاني المختلفة . وأشعر منهم عندي الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام ، وأبو عبادة البحتري ، وأبو الطيب المتنبي ؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء ، أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعاني ، وأما أبو عبادة فرب الألفاظ في ديباجتها وسبكها » . وهو في هذا الفصل من كتابه يورد آراء بعض الناقدين في الشعراء ويناقشها كعادته .

ومع تعصب ابن الأثير للعربية ، يقر بفضل العجم فيما أوتوه من القدرة على الإطالة المفرطة في الشعر ، « فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو

قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » .

وألف ابن الأثير كتباً بعضها لم أعثر عليه .

١ — كتابه فى السرقات الشعرية الذى حدثنا عنه فى المثل السائر .

٢ — كتاب كنز البلاغة الذى أشار إليه السبكى فى شرحه على التلخيص .

٣ — كتاب مختارات اختار فيه من شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى ، قال عنه ابن خلكان : « وهو فى مجلد كبير ، وحفظه مفيد » ، وقال أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل : نقلت من خطه فى آخر هذا الكتاب المختار ما مثاله :

تمتع به علماً نفيساً فإنه اختيار بصير بالأمور حكيم
أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى إلى الشعر من نهج إليه قويم

٤ — كتاب المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء .

٥ — الكتاب المرصع فى الأدبيات ، وقد طبع فى القسطنطينية سنة ١٣٠٤ .

٦ — أما أهم كتاب له فهو المثل السائر الذى حاول أن يضبط فيه قواعد البلاغة ، ونهج فى تأليفه نهجاً أدبياً عملياً ، لا نظرياً جافاً ، وملأه بالأمثلة وبيان مواضع الجمال ، ونقد مواطن القبح ، وعقد الموازنات ، وهو يعد من أسس كتب البلاغة ، وكان لهذا الكتاب وقع كبير فى الدوائر البلاغية فمنذ ما وصل هذا الكتاب إلى بغداد انتقده الدامغانى بكتاب سماه القلك الدائر على المثل السائر ، وانتصر أبو القاسم السنجارى المتوفى سنة ٦٥٠ للمثل السائر ، فألف كتاباً سماه نشر المثل السائر وطى القلك الدائر ؛ وتستطيع أن ترجع إلى كشف الظنون لترى ما أثاره هذا الكتاب من دراسات .

٧ — وكتابه الوشى المرقوم فى حل المنظوم منهج تطبيق لفكرته التى يدعو إليها ؛ ذلك أنه يرى الكاتب محتاجاً لحفظ القرآن الكريم والأخبار النبوية والأشعار الكثيرة بقدر المستطاع . وفى هذا الكتاب يبين بطريقة عملية كيف نستفيدها نثراً ونحفظ فى ترقية أسلوبنا والثروة فى معانينا ، ولو أن اللفتات التى نبه عليها ابن الأثير ، فى المعانى والعناية بها ، وكيف نستنبطها ، ونبتكرها سارت فى طريقها ، ولم تعقها الدراسات النظرية المحضة لكان لبلاغتنا اليوم شأن جد رفيع .

وله بدار الكتب :

٨ — كتاب مؤنس الوحدة ، جمع فيه أشعاراً وأخباراً فى المدائح والأوصاف والتشبيهات .

٩ — كتاب المفتاح النشا لحديقة الإنشا ، بدأه مبيناً فضل صناعة الإنشاء وأنها أشرف صناعات الملك ، « فهى اليد اليمنى التى بها الأخذ والعطاء ، والمنع والإمضاء ، والقبض والبسط » ، فلا جرم كان من الواجب أن يختار لهذه الصناعة رجل تتوافر فيه صفات خاصة بين عقلية وخلقية وثقافية . ورتب الكتاب على بابين : أولهما فى مراتب الكتب والمخاطبات ، والثانى فى الأدعية والانتهاءات ، فذكر ما تبدأ به الرسائل ، والألقاب التى يخاطب بها المرسل إليهم ، والدعاء لهم . وذكر فصلا فى الأدعية لأرباب غير الملة الإسلامية ؛ وأورد الصيغ التى يقدمها الكاتب بين يدى مراده . كما شرح فيه كثيراً من ألوان المحسنات البديعية .

ولابن الأثير شعر قليل ، لا يضارع قوة نثره ، ولعل من أجوده قوله :

وساءلتمونى عندكم كيف حالتى وذلك أمر بين ليس يشكل .
فعن قلبه ، لا تسألوا فهو عندكم وأما عن الجسم المخلف فاسألوا .

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

المراجع :

(١) وفيات الأعيان حـ ٢ ص ١٥٨ و ٤٠٨ .
(٢) بغية الوعاة ص ٤٠٤ (٣) شذرات الذهب حـ ٥ ص ١٨٧
(٤) كتبه . (٥) صبح الأعشى حـ ٢ ص ٤٤٦ .
(٦) الروضتين حـ ١ ص ١٩٢ و حـ ٢ ص ٢٢٨ .
(٧) السلوك حـ ١ ص ١١٥ و ١١٦ و ١١٨ و ١٢٣ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٥١ . (٨) نثر الجمان — القطعة الثانية ص ١١٦
(٩) النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٥ و ١٦٢ و ٢١٨ (١٠) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول — الجزء الثانى ص ٨٢ (١١) معجم البلدان حـ ٣ ص ١٠٢
(١٢) شرح السبكى على التلخيص ص ٨٢ حـ ١ شروح التلخيص
(١٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء حـ ٢ ص ١٨٩
(١٤) أكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٧٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥
(١٥) كشف الظنون حـ ٢ نهر ١٥٨٦ و ١٩٤٨
(١٦) معجم المطبوعات العربية لسركيس حـ ١ نهر ٣٥